

عقاب الله لصاحب الجنين

{ قَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي فِي أَيِّ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ. فِي الدُّنْيَا: الْإِتِّدَادُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَفِي الآخِرَةِ: دُخُولُ دَارِ كَرَامَةِ اللَّهِ }
أَنْ يُؤْتِيَنِي حَبْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَبُرْسِيَلًا عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا رَلَقًا أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا عَوْرًا } ؛ يَعْنِي: عَسَى أَنْكَ لِمَا
اِفْتَخَرْتَ بِهَذِهِ الْجَنَّةِ، وَبِمَا فِيهَا، وَبِزَهْرَتِهَا، وَبِزَيْتِهَا، وَبِمَا فِيهَا مِنَ الثَّمَارِ، وَالْأَشْجَارِ، وَالْأَنْهَارِ، وَطَنَنْتَ أَنْكَ لَا تَعُودُ إِلَى الآخِرَةِ،
وَقُلْتَ: مَا أَطْنُ أَنْ السَّاعَةَ قَائِمَةً - أَنْ يُهْلِكَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَيُثَلِّفَهَا، اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَا أَخْبَرَ بِهِ، أَوْ لِمَا طَلَبَهُ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنُ،
فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا { حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ } أَي: صَاعِقَةً مِنَ السَّمَاءِ أَحْرَقَتْهَا، أَوْ أَرْسَلَ عَلَيْهَا سَيْلًا عَرْمَرَمًا حَمَلَهَا، وَلَمْ
يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ. يَعْنِي: الْحَاصِلُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أزالَهَا، وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا شَيْءٌ، أَوْ غَارَ مَأْوَاهَا، وَبِسَبَبِ أَشْجَارِهَا؛ اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ
صَاحِبِهِ، لِمَا أَنَّهُ لَمْ يَتَقَبَّلْ مِنْهُ النَّصِيحَةَ، وَلَمْ يَشْكُرْ رَبَّهُ عَلَى مَا أَعْطَاهُ مِنْ هَذَا النِّعْمِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: { قَعَسَى رَبِّي أَنْ
يُؤْتِيَنِي حَبْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَبُرْسِيَلًا عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ } ظَاهِرُهُ: أَنَّهَا نَزَلَتْ عَلَيْهَا عِقَابٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَيُذَكَّرُ فِي الْحِسَابِ
الصَّوَاعِقُ؛ يَعْنِي: صَاعِقَةٌ نَهَتْهَا، وَبَدَخَلُ فِي ذَلِكَ السَّيْلِ: الَّذِي يَسْلُطُهُ اللَّهُ تَعَالَى فَيَحْمِلُ مَا فِي طَرَفِهِ مِنَ الْقُصُورِ، وَمِنَ
الْأَشْجَارِ، وَمِنَ الْبَنِيَّاتِ، وَمِنَ الصَّخُورِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يَحْمِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَبِمَكْنِ أَنْ هَذِهِ الصَّائِحَةُ فِي الْحِسَابِ: أَنَّهُ عِقَابٌ، وَلَوْ
كَانَتْ الْأَسْبَابُ مَوْجُودَةً؛ يَعْنِي: الْأَنْهَارُ قَدْ تَكُونُ جَارِيَةً، وَكَذَلِكَ الْأَشْجَارُ مَزْهَرَةٌ، فَيَسْلُطُ اللَّهُ عَلَيْهَا جَفَافًا، أَوْ يَسْلُطُ عَلَيْهَا
حَرِيْقًا، فَتَبْقَى لَا أَثَرَ فِيهَا، إِنَّمَا هِيَ أَثَرٌ بَعْدَ عَيْنِ. { حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا رَلَقًا } الصَّعِيدُ: هُوَ الْأَرْضُ الْمَسْتَوِيَّةُ،
الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مَرْتَفَعٌ، وَفِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: { فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا } أَي: أَرْضًا مَسْتَوِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا بِنَاءٌ، وَلَيْسَ فِيهَا جِبَالٌ،
وَلَيْسَ فِيهَا أَشْجَارٌ. بَلْ أَرْضًا بِيضَاءً، هَكَذَا أَصْبَحَتْ، تَصْبِحُ صَعِيدًا رَلَقًا. الزَّلَقُ: هِيَ الْمَرَلَةُ، كَانَهُ دَعَا عَلَيْهِ أَنْ يَصِيْبَهَا مِيَاهُ
تَغْرِفَهَا، فَتَصِيرُ مَزَلَةٌ مِنْ صَارَ فِيهَا زَلْتٌ فِيهِ قَدَمُهُ زَلْفًا يَعْنِي: زَلَّ وَسَقَطَ. { فَتُصْبِحُ صَعِيدًا رَلَقًا أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا عَوْرًا } الْمَاءُ
الَّذِي يَتَدَفَّقُ فِي هَذِهِ الْأَنْهَارِ يَصْبِحُ غُورًا، إِذَا غَارَ الْمَاءُ لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوَكُمْ عَوْرًا
فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ } ؛ يَعْنِي إِنْ غَارَ الْمَاءُ؛ يَعْنِي: إِنْ قَلَّ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ، اِضْمَحَلَّ الْمَاءُ الَّذِي فِي الْأَبَارِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ
شَيْءٌ. ذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: أَنَّ رَجُلًا لَمَّا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي آخِرِ سُورَةِ الْمَلِكِ: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوَكُمْ عَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ
بِمَاءٍ مَعِينٍ } فَقَالَ: تَأْتِي بِهِ الْغُثُوسُ وَالْمَسَاحِي؛ أَي يَحْفَرُ إِلَى أَنْ نَصَلَ إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ فِي أَقْصَى الْأَرْضِ، اِفْتَخَرَ بِهَذَا؛
فَأَصِيبُ، أَصَابَهُ اللَّهُ وَعَاقِبَهُ، فَأَصْبَحَ مَاءٌ عَيْنِيهِ غَائِرًا، أَصْبَحَ وَلَيْسَ فِي عَيْنِيهِ مَاءٌ، لَا يَبْصُرُ!! فَقِيلَ لَهُ: مَنْ يَأْتِيكَ بِالْمَاءِ الَّذِي
فِي عَيْنِيكَ؟! لَا تَقْدِرُ أَنْ تَرُدَّهَا، كَانَ الْأَوَّلَى بِكَ أَنْ تَعْتَرِفَ أَنَّهُ لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا اللَّهُ!! فَلِذَلِكَ يَسْتَحِبُّ بَعْضُهُمْ إِذَا قَرَأَتْ قَوْلَ اللَّهِ
تَعَالَى: { فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ } أَنْ تَقُولَ: يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ أَي: هُوَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ، إِذَا غَارَ الْمَاءُ فَمَنْ الَّذِي يَأْتِي
بِهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. وَالْوَاقِعُ أَنَّ كَثِيرًا جَفَّتْ الْمِيَاهُ عِنْدَهُمْ، وَغَارَتْ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ، فَحَفَرُوا إِلَى أَنْ وَصَلُوا إِلَى مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ،
وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَدْرِكُوا هَذَا الْمَاءَ، وَلَا أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ؛ فَكَانَ ذَلِكَ عِقَابًا، وَإِنَّمَا يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِذَا أَنْزَلَهُ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ. فَيَقُولُ
فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ: { أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا عَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا } وَلَوْ حَفَرْتَ تَطْلِبُهُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا غَارَ
اِضْمَحَلَّ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ بَقِيَّةٌ أَبَدًا، فَهَكَذَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ صَاحِبِهِ أَنَّهُ دَعَا عَلَيْهِ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ، أَوْ تَفَاوَلُ بِأَنَّ اللَّهَ يَجْرِمُهُ مِمَّا
أَعْطَاهُ، لَمَّا كَفَرَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ، يَقُولُ: { فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا } . يَقُولُ تَعَالَى: { وَأَحْبِطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ
كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا } أَحْبِطَ بِثَمَرِهِ: الثَّمَرُ: هُوَ مَا يَجْنَى مِنَ الشَّجَرِ، أَحْبِطَ بِهِ: إِذَا أَهْرَقَ الثَّمَرُ، أَوْ أَنَّ الشَّجَرَ لَمْ يَثْمُرْ
أَصْلًا، وَبَقِيَ لَيْسَ لَهُ ثَمَرَةٌ مَقْصُودَةٌ، وَلَيْسَ فِيهِ مَنَفَعَةٌ؛ إِنْ الشَّجَرُ غَالِيًا إِنَّمَا يَغْرَسُ لِأَجْلِ ثَمَرِهِ الَّذِي يَحْصُلُ مِنْهُ، فَيَقُولُ
تَعَالَى: { وَأَحْبِطَ بِثَمَرِهِ } فَيَبْسُ الثَّمَرُ، أَوْ لَمْ يَثْمُرْ؛ { فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ } يَتَأَسَفُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا: أَنَّهُ أَنْفَقَ فِيهَا أَمْوَالًا،
أَنْفَقَ فِيهَا بِمَعْنَى: أَنَّهُ حَفَرَ الْأَبَارَ، وَبَنَى الْقُصُورَ، وَأَجْرَى الْأَنْهَارَ، وَغَرَسَ الْأَشْجَارَ، وَاشْتَرَى فِيهَا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَأَتْلَفَ مَا كَانَ
عِنْدَهُ فِي هَذَا الْبِسْتَانِ، أَوْ فِي هَذَيْنِ الْبِسْتَانَيْنِ، أَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ أَسْفًا عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا { وَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَى غُرُوبِهَا }
هَكَذَا وَصَفَهَا اللَّهُ: بِأَنَّهَا خَاوِبَةٌ؛ الْخَاوِبَةُ: هِيَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَثَارٌ، لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَشْجَارِ، وَلَا مِنَ الثَّمَارِ، وَلَا مِنَ
الْمَسَاكِينِ، لَيْسَ فِيهَا سَكَنٌ، وَلَيْسَ فِيهَا مَسْتَقَرٌّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: { قِتْلِكَ يَبُوءُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا } أَي لَيْسَ فِيهَا سَكَنٌ. {
خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا } فَالْخَاوِبَةُ عَلَى عَرُوشِهَا. عَرُوشُهَا مَعْنَاهَا: أَثَارُهَا الَّتِي بَقِيَتْ لَهَا؛ يَعْنِي: أَسَسَ الْحَيْطَانَ مِثْلًا، أَوْ أَصُولَ
الْأَشْجَارِ. خَاوِبَةٌ: لَيْسَ فِيهَا سَكَنٌ، وَلَيْسَ فِيهَا مَاءٌ، وَلَا أَشْجَارٌ، وَلَا أَزْهَارٌ، وَلَا خَضْرَاءٌ، وَلَا أَوْرَاقٌ مَزْهَرَةٌ، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ؛ عِقَابٌ
مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. { فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَى غُرُوبِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا }
هَكَذَا تَمَنَّى أَنَّهُ مَا أُشْرِكُ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عِقَابَهُ لِأَنَّهُ أُشْرِكُ بِاللَّهِ. أُشْرِكُ بِاللَّهِ يَعْنِي: نَسَبُ نِعْمَةِ اللَّهِ إِلَى غَيْرِهِ، نَسَبُ
فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا خَوْلَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَإِلَى قُوَّتِهِ، وَإِلَى حِيلَتِهِ، وَتَنَاسَى عَطَاءَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَتَنَاسَى فَضْلَهُ، { وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ
فَمِنَ اللَّهِ } نَسِيَ إِنْ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ امْتِحَانٌ وَابْتِلَاءٌ؛ فَلِذَلِكَ ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ تَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَشْرِكْ. { وَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَى غُرُوبِهَا
وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا } هَكَذَا أَخْبَرَ اللَّهُ: لَمْ يَكُنْ لَهُ
فِتْنَةٌ؛ يَعْنِي: قَبِيلَةٌ أَوْ أُسْرَةٌ، أَوْ قَوْمٌ { يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ } أَي: يَرُدُّونَ عَنْهُ عَذَابَ اللَّهِ، يَرُدُّونَ عَنْهُ مَا سَلَطَ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ، وَلَا نَاصِرٌ، لَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ خَذَلَهُ اللَّهُ فَلَيْسَ لَهُ وَلِيٌّ،
وَلَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ يَنْتَصِرُهُ، لَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ { وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا } عَلَى عَذَابِ اللَّهِ. وَهَلْ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّ
بِأَسِ اللَّهِ إِذَا جَاءَهُ؟ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ آمَنَ بِأَسِ اللَّهِ فَإِنَّهُ ضَالٌّ مُضِلٌّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { أَقَامَنَّ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِأَسَاتِ
بَيِّنَاتٍ وَهُمْ تَائِمُونَ أَوْ آمِنٌ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِأَسَاتِ ضَحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَقَامُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْخَاسِرُونَ } فَالَّذِينَ يَأْمَنُونَ عَذَابَ اللَّهِ، وَيَأْمَنُونَ مَكْرَهُ، وَيَسْتَوُونَ كَانَهُمْ آمِنُونَ، يَسْتَوُونَ عَلَى شَرَابِهِمْ، وَعَلَى مَعَاصِيهِمْ، وَعَلَى
مَخَالَفَاتِهِمْ، آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ فِي حَيَاتِهِمْ، لَا يَأْمَنُونَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِأَسِ اللَّهِ وَهُمْ نَائِمُونَ، كَمَا حَصَلَ لِهَذَا الرَّجُلِ.